

دلائل البحث عن الحمامات الرومانية في الجزائر القديمة Research Evidence on Roman Therms in Ancient Algeria

أ. دحمان رياض

مخبر البناء الحضاري للمغرب الاوسط الجزائر / جامعة قالمية.

البريد الالكتروني: dahmane_riad@yahoo.com

الملخص:

لتمكين الباحثين من التعرف على المنشآت الحموية، تشترك عديد العناصر مجتمعة للحكم على طبيعتها ومعرفة مختلف عناصرها التي توحى لنا بطريقة عملها وترباطها فيما بينها، هذه العناصر قد يوجد ما يشبهها في منشآت بعيدة كل البعد في وظيفتها عن الحمامات، مما تستدعي الضرورة تعميق البحث عن مرتكزات لا مجال للشك فيها، يحدد من خلالها الفعل الحموي في بناء مكتمل العناصر، يبدأ من دخول الماء إليها ثم نظام التسخين القائم على الديناميكية الحرارية ومن بعده توزيع القاعات والغرف بما يوافق مبدأ الصحة الجسدية والراحة النفسية.

الكلمات المفتاحية: حمامات، نظام التسخين، قنوات المياه، أحواض.

Abstract:

To enable researchers to identify therms complexes, multiple elements are combined to assess their nature and to understand the various components that indicate their functioning and the interdependence among them. These elements may also be present in establishments of a different nature, which requires further in-depth investigation of specific diagnostic indicators through which the different components can be determined. These include, first, water-supply systems, followed by heating systems based on thermodynamic principles, and finally the spatial organization of halls and rooms in accordance with principles of physical health and psychological comfort.

Keywords: Therms, hypocaust, water conduits, pools.

مقدمة

تستوقف الباحثون في علم الآثار عديد التساؤلات حول طبيعة المباني ووظائفها في الفترة الرومانية، إذ من الصعوبة بمكان التعرف عليها في بداية أبحاثهم، خاصة إذا كانت الأدلة غير كافية، مما يطرح البعض منهم استنتاجات قابلة للنقض، من هذه المباني الحمامات، حيث درجت الأبحاث السابقة على الحكم على طبيعتها انطلاقاً من نظام تسخينها، فيكون الحكم مباشرة على وظيفتها، لكن هذا المرتكز وإن كان أحياناً صائباً إلا أنه غير كاف، لذلك وجب البحث على أدلة أخرى أكثر وزناً لتعزيز الاستنتاجات والخروج بحكم شافٍ لا يدع مجالاً للشك حوله، وهذا لا يكون إلا بتوسيع دائرة البحث، لتشمل المرتكزات التالية:

- الملف الأيبوغرافي (النقائش اللاتينية).
- نظام التسخين "الهيبيوكوست" وعناصره المتكاملة.
- مصدر المياه وقنوات نقلها وتصريفها من المباني الحموية.
- التوزيع الفضائي لعناصر الحمامات (القاعات والأحواض).
- الأدوات المستعملة في الحمامات دون سواها من المباني.

1- الملف الأيبوغرافي:

تعتبر النقائش اللاتينية واحدة من أهم الشواهد للتعرف على الحمامات الرومانية، وعلى الرغم من قلتها إلا أنها تعدّ توثيقاً مباشراً لها، وفي بعض الأحيان دليلاً للتأريخ عند دراستها من الجانبين النقني واللغوي، بالمقابل قد يصادفنا أثناء التحري والتنقيب، نصوصاً غير مكتملة أو أصابها التلف، أو مجلوبة من مكان آخر وقت بناء الحمامات، إذ ليس بالضرورة لصاحب المبنى ترك كتابة تشير إليها، ويغلب عليها طابع العموم إذا ارتبطت بالهبات لغرض تقلد مناصب سامية أو الترقية إلى رتب أعلى، إدارية كانت أو دينية أو تشريفية، هذا النوع من النقائش سهل للتأريخ مقارنة بغيره، ومصادر ها محدودة، إذ نكتفي في كثير من الأحيان بدراسة تلك الموجودة في مجمع النقائش اللاتينية، أو المذكورة في النقائش اللاتينية للجزائر (ILAlg)، أو من خلال منشورات السنة الأيبوغرافية (Année épigraphique)، وتجدر الإشارة إلى أنّ إثراء الملف الأيبوغرافي لا يكون إلا بالمكتشفات الجديدة والقراءات المتعددة.

من جهة أخرى تعدّ النقائش التي ترتبط بالحمامات الرومانية من حيث العملية الإحصائية قليلة مقارنة بتلك الخاصة بالمباني العمومية المختلفة، وتبقى الإهدائية المرتبطة بالحمامات العمومية دليل مباشر للتعرف على الواهبين أو المتدخلين في تمويلها أو صيانتها أو إصلاح قنوات مياهها.

من هذه النقائش تلك المكتشفة سنة 1906م بحمامات يوكوس *Aquae Caesaris*. والتي تحمل اسم *T. AELIUS-SELECUS* (أحد معتوقي الإمبراطور أنطونيوس التقي¹ والتي تؤرخ بفترة حكم هذا الأخير)،

¹ - GSELL, S., 1922, I., n° 2943.

أيضا النقيشة التي تذكر عمليات الترميم لما تضرّر من الحمامات أو قنوات تزويدها بالمياه والتي تؤرخ بفترة حكم الامبراطورين فالنتينيانوس وفالنتيس (364م-365م)، والتي تخصّ أحد أحواض حمامات مدينة كالما، بسبب التدقّق البطيء للمياه وتراكم الأوحال داخلها².

وفي نفس الفترة تذكر نقيشة الحمامات الصيفية بخنشلة *thermarum aestivalium*، بأمر من فالنتينيانوس وفالنتيس رَمَم ما تضرّر من أحواض الحمامات³.

كذلك النقيشة التي وجدت في مدينة لمبايزيس والتي تذكر تدخل الحاكم السيناتوري لإجراء عمليات صيانة للحمامات⁴، لكنها لا تشير إلى أي حمام خصّ بهذه العملية، إذ وجد بذات المدينة عدد من الحمامات، وهناك من النقائش ما يذكر مدة الانجاز بدقة على غرار حمامات باكاتوس بقسنطينة وحمامات كاستيلوم ماسترنسيس.

لكن الكثير من الحمامات لم يعثر بها على نقيشات مرتبطة بها، وإن وجد القليل فهو لا يشير إلى ذكر أصحابها أو ملاكها أو المتدخلين لبنائها، فقط هناك بعض الإشارات لطبيعة الفعل الحموي وما ارتبط به من نظافة وصحة، ولنا من الأمثلة في مواقع متفرقة كتابات تحمل العبارة *BENE LAVA* ولكن بصيغ نحوية مختلفة.

فبمدينة لامبايزيس نجد فوق أرضية فسيفسائية العبارة التالية *BENE LAVA*⁵

وبمدينة ايكوزيتوم (ولاد عقلة)⁶، وجدت على النحو التالي:

BENE LAVARE
SALVUM LAVISSE

ونسجل في حمامات فيلادالف بمدينة ثاموقادي، على عتبة القاعة الساخنة الثانية العبارة التالية⁷:

B(ONIS) B(ENE)
SALVU(M) LOTV(M)

وتشير العبارة الأولى إلى الدّخول إلى الحمام والثانية إلى الخروج منه⁸.

وفي حمامات المنزل قرب سوق الملابس وجدت فوق تبليط فسيفسائي الكتابة⁹ *BONIS BENE*

وفي حمامات المنزل شمال الكابتول وجدت الكتابة *BENE LAVA* و *SALUUM LAVISSE* فوق تبليط

فسيفسائي لعتبة الفصل بين القاعتين الدّافئة والباردة¹⁰ (الصورة 01)، والذي يظهر كذلك زوج من

² - دحمان، رياض، 2013م-2014م، ص. 99.

³ - BIREBENT, J., 1964, p. 221.

⁴ - AE, 1971, 508. ; LE BOHEC, Y., 1989, p. 474, n°228.

⁵ - GSELL, S., 1911, F27, n°224, 17 ; CAGNAT, R. ; BALLU, A., 1916, p. CLXVIII.

⁶ - BALLU, A., 1924, p. 23.

⁷ - BALLU, A., 1911, pp. 105-107.

⁸ - CAGNAT, R. ; BALLU, A., 1916, p. CLXIX.

⁹ - BALLU, A., 1910, pp. 115-116. ; GERMAIN, S., 1969, p. 96.

¹⁰ - CAGNAT, R., in BAC, 1916, pp. 167-168. ; WAROT, S., 1960, pp. 167-171. ; GERMAIN, S., 1969, p. 116. ;

الأحذية تتعل داخل الحمّامات، أمّا العبارة الأولى فتعني استحم جيدا وفيها إحياء إلى الدّخول إلى الحمّامات، والثّانية فيها إشارة إلى الخروج منها بالتّمني للمستحمين أنّ حمّامهم كان نافعا ومفيدا¹¹.



الصورة 01: تخطيط فسيفسائي لعتبة تفصل بين القاعتين

الدافئة والباردة في حمّامات المنزل شمال الكابتول

بثاموقادي. عن:

<https://sites.google.com/site/christelsavaresemosaiqu>
.e/collection-patrimoine-historique

ما يشبه هذا النوع من التّصوير وجد بجمّامات مدينة فريجوس Fréjus جنوب شرق فرنسا، حيث نقش فوق بلاطة رخامية قدمين متعلتين حذاء استحمام (**الصورة 02**)، ومثال آخر وجد بجمّامات جونفال Jonvelle بمنطقة بورغوني Bourgogne شرق فرنسا تؤرخ بالنصف الثاني من القرن الثاني ميلادي¹².



الصورة 02: نقش على لوح رخامي بجمّامات مدينة

فريجوس. عن: BOUET, A., 2003, Thermes Privés et Publics en Gaule Narbonnaise, in EFR, N°320, Rome, planche 16-b.

لا يتوقّف دور النقائش اللاتينية عند هذا الحد، بل هناك ما يشير إلى مواد بناء الحمّامات وحتى الطريقة التي بني بها نظام تسخينها وشبكاتها المائية، ففي مدينة لامبايزيس نجد النّص الذي يذكر القاعة الباردة لأحد الحمّامات، ويقترح مومسن تكمّلته وفق ما يلي¹³:

*QUART FRIG(IDARIUM) COL(YMBUS) PED(ES)
QUAD(RATI) T(UBI) DICXXXVTMCCXXC.IX*

¹¹ - VELDMEIJER, A.J., 2011, p. 245. ; WAROT, S., Op, Cit, p. 111. ; GERMAIN, S., 1969, pl. 78.

¹² - STERN, H., 1969, p. 239.

¹³ - CIL. VIII, n° 2578.

بخصوص الأحرف الأخيرة بعد كلمة *TUBI* فهي ربما إشارة إلى معطيات متعلقة بمواد البناء حسب ما ذهب إليه تيبار¹⁴، في حين الاختصار *COL* الذي يقترح مومسن تكملته الى *COL(YMBUS)*، يمكن أن يقرئ اذا ما ارتبط بالكلمة *TUBI* (قناة أو أنبوب) على النحو الآتي: *COL(LUUIES)* والتي تعني عند بلين قنوات الصّرف¹⁵.

من النقائش ما يشير الى الآلهة المرتبطة بالفعل الحموي وما يصحبه من صحة وعافية للجسد، والمقصود هنا الإلهين اسكولابيوس وهيجيا، هذه النقائش وجدت مكتوبة على قواعد حاملة لتمائيل الالهين المذكورين، في عدد من المواقع. ففي مدينة تاموقادي وجدت بمنزل يانوياريوس الكتابة الآتية¹⁶:

*AESCULAPIU(M) L(ucius).ACILIUS GRANIANUS L(ucio) IULIO IAN(U)ARIO
SOCER(o) SUO AT EXORNATIONE(M) BALINEI DONO DEDIT*

بالإضافة إلى نقيشة أخرى تضم نفس المحتوى، لكنها تخص الإلهة هيجيا¹⁷

*HYGIAM L(UCIUS) ACILIUS GRANIANUS L(UCIO) IULIO IANUARIO
SOCERO SUO AT EXORNATIONEM BALINEI DONO DEDIT.*

كلا النقائشان تبيان بصريح العبارة أن تمثالي اسكولابيوس وهيجيا قد أهديا من طرف لوكيوس أكيليوس قرانيانوس زوج ابنة يانوياريوس من أجل تزيين الحمام الخاص لهذا الأخير.

وجدت بمنزل سارتيوس الكتابة الآتية¹⁸: *HYGIAE AUG(USTAE) FAUSTUS ET VALENTINA*

وهو تكريس للآلهة هيجيا من طرف فوستوس سارتيوس وزوجته فالنتينا، وأخرى للإله اسكولابيوس¹⁹

AESCULAPIO AUG(USTO) AT EXORNATIONEM BALNEI PRIMITIV(U)S ACTOR

وعلى نفس الشاكلة بالنسبة للحمامات العمومية حيث وجدت كتابات اهدائية للآلهة الى جانب تماثيل

لرعاية ومرافقة المستحمين، ومن هذه الكتابات نجد:

ما وجد في الحمامات الكبرى بمدينة مادوروس : *AESCULAPIO AUG(USTO)*²⁰

*HYGIAE AUG(USTAE)*²¹

وبنفس الحمامات اهداء للآلهة فورتونا *FORTUNAE AUG(USTAE)*²²

وآخر للإله ماركور *MERCURIO AUG(USTO)*²³

وفي الحمامات الكبرى الجنوبية بئاموقادي وجد اهداء للإلهة فيكتوريا من طرف لوكيوس كلاوديوس²⁴

*VICTORIAE AUG(USTAE) SACR(UM) L. CLAUDIUS
L. F(ILIIUS) FAB(IA TRIBU) CLEMENS OB HONOR(EM) II
UIR(ATUS) POSUIT ID(EMQUE) D(E)D(ICAUIT)*

¹⁴ -, 2003, p. 507. Y. THEBERT,

¹⁵ ROBERT, E., 1522, p. 758.

¹⁶ CIL. VIII, n° 2340.

¹⁷ VARS, C., 1901, p. 249.

¹⁸ Ibid., p. 219.

¹⁹ GSELL S., 1901, p. 311.

²⁰ GSELL, S., 1922, ILAlg, I, n°2031; AÉ, 1907, 235. ; GSELL, S. ; JOLY, C.A., 1914-1922, p. 107.

²¹ GSELL, S., 1922, ILAlg, I, n°2050. ; AÉ, 1907, 242.

²² GSELL, S., 1922, ILAlg, I, n° 2040. ; AÉ, 1907, 240.

²³ GSELL, S., 1922, ILAlg, I, n°2057.

²⁴ CAGNAT, R., 1893, p. 162.

وآخر للإلهة فورتونا ²⁵ *FORTUNAE AUG[USTAE] SACRUM*

وبحمام الفلافيين *aquae flavianae* عند ترميم الحوض الدائري للحمامات في عهد سبتيموس

سيفيروس انجز تمثالين للإلهين اسكولابيوس وهيغيا وهو ما تبينه النقيشة التي تحمل اسميهما²⁶

PRO SALUTE ET VICTORIA DOMINI N(OSTRI) IMP(ERATORIS)

L. SEPTIMI(I) SEUERI PERTENACIS AUG(USTI) ET

CLODI(I) ALBINI CAES(ARIS) AEscULAPEM ET HYGIAM DEDICANTE

LEPIDO TERTULLO LEG(ATO) AUG(USTI) PR(O) PR(AETORE) C(LARISSIMO)

*U(IRO) M. OPPIUS ANTIOCHIANUS C(ENTURIO) LEG(IONIS) III AUG(USTAE) PIAE
VINDICIS,*

POSVIT ET V(OTUM) S(OLUIT).

من المعروف، أن الحمامات، خاصة العمومية كان بعضها يفتح بالمجان كما قد تحدد قيمة معينة

كرسم للدخول، وهذا بيّنته بعض النصوص والكتابات القديمة، مثل تلك التي وجدت بحمامات خلفون

بالقرب من سطيف فوق أرضية فسيفسائية جاء فيها²⁷:

BENE LAVES
OZE EADES
CRAS GRAT
IS RESTVTA

SALVVIAVISE
BONO OI
FIERI - IVSIT
EX S

Bene laves oze(=hodie) ades cras gratis : Restuta

Saluvi...bono[s]i fieri iusit ex s(estertiis)

اقترح قزال²⁸ ترجمتها إلى الفرنسية ونحن بدورنا ننقلها عنه حرفيا كما يلي: "حماما صحيا! اليوم ادفع

أس وغدا يكون الدخول مجانا، فلا تجزع؟".

أما بالنسبة للسطر الثاني اقترح كانيا²⁹ تكملته على النحو الآتي:

SALUU(M) LAUIS(S)E, / BONO (EIUS) Q(U)I / FIERI

IUS(S)IT / EX S[UA PECUNIA ?].

حسب هذه القراءة، أن الكتابة أنجزت فوق تبليطين، الاول عند الدخول كترحيب بالمستحمين والثاني

عند الخروج بتمنيات أن الحمام كان جيدا³⁰.

²⁵ Ibid, p. 161.

²⁶ CIL VIII, n° 17726. ; BIREBENT, J., Op. Cit, p. 242.

²⁷ CIL VIII, n° 8424.

²⁸ GSELL, S., 1901, p. 231.

²⁹ CAGNAT, R., 1925, p. 172.

³⁰ THEBERT, Y., 2003, p. 507.

2. نظام التسخين وعناصره :

الى جانب الملف الايبوغرافي، تشير الآثار المكتشفة عن طريق الحفريات في المواقع الاثرية عن دلائل توجه بدرجة أولى الى الحمامات لما لها من علاقة لا تدع مجالاً للشك، هذه الدلائل تعتبر مؤشرات حقيقية لطبيعة المبنى وحدوده ولواحقه وكذا المجال المحيط به.

يعتبر نظام التسخين المتكامل بجميع مكوناته (الموقد، الأعمدة الآجورية أو الحجرية، التجويفات الجدارية، أواني تسخين المياه، أرضية القاعات..) واحداً من أهم الدلائل التي إن وجدت في المباني فهي إشارة قوية للحكم عليها، ولكن قد توجد حمامات لدى الخواص لا تحتوي على نظام تسخين بهذا الطرح التقليدي والشائع في جميع المدن، إذ يعتمد على تسخين المياه في موقد موحد قد تشترك فيه مع المطبخ، وبالتالي تكفي غرفة واحدة للقيام بهذه العملية، وهنا يجب البحث عن مؤشر آخر يعزز الحكم، وهو الماء وما يصحبه من قنوات ناقلية وأخرى لتصريفه خارج المبنى، كذلك الملاط الجيري والذي عادة ما تلبس به الجدران التي تحتك بالمياه، لما له من خاصية عزل وغير نفوذ لها، والجدران الفاصلة بين الجزء الحموي وباقي أجزاء المنزل حتى لا تتسبب الرطوبة المنبعثة من القاعات الساخنة وأحواضها في التأثير السلبي على أجزاء أخرى،

تبقى الفرضية الرامية إلى الحكم على المبنى من خلال أرضية القاعات الساخنة ناقصة، بسبب التشابه الإنشائي مع مباني أخرى لكن غرضها الوظيفي مختلف عنها، قد تكون مثلاً قاعة استقبال وفي غياب أحواض مبنية *solium* أو حتى أماكن لوضع حوض الاغتسال *labrum* تشير التساؤل حول طبيعتها، مثل تلك التي وجدت بمنزل *L. OCTAVIUS FELIX* بفرنسا *Narbonnaise* مما يتوجب دراستها ضمن نسيجها الهندسي وارتباطها مع باقي أجزاء المبنى³¹

يقودنا هذا الطرح إلى البحث عن عناصر لا تدع مجالاً للشك، مثل التجاويف المشكلة من الآجر والمنجزة في جوانب الجدران في القسم الساخن والتي يتخللها الهواء الساخن المنبعث من الأرضية والمكتسبة بدورها من حرارة الأفران، تعمل على نشر الحرارة إلى مستويات مرتفعة، ومن جهة أخرى تخفيف الضغط عن الهواء تحت الأرضية المحمولة فوق أعمدة الهيبيوكوست، هذه التجاويف تعزز الحكم على حموية المبنى، ويضاف إليها عناصر تسقيف القاعات على شكل قباب سواء كانت عقد نصف دائري *Voute en berceau plein cintre* أو عقد ذو زوايا بارزة *Voute D'arête*، وهذا الأخير يسمح بجعل القاعة محافظة على حرارتها لمدة زمنية طويلة، وقدم فيتروفيوس نصيحة للمحافظة على الخشب أن يستعمل في القباب من الرطوبة التي تنتجها القاعات الساخنة وذلك عن طريق إنشاء مزدوج للقبعة يسمح للهواء الساخن المرور بينهما³²، لكن عملياً قبة بهذا الشكل قليلة الوجود في الحمامات الرومانية.

³¹ - FOULCHE, A.L., 2011, p. 155.
³² - VITRUVIUS, 1847, Ch. 5, 10.

من جهة أخرى، يشكّل اتساع القاعات وارتفاعها من عدمه عاملاً هاماً لتتبع حركية الهواء الساخن داخلها، إذ تتناسب درجات الحرارة تناسباً طردياً مع علو القاعات، فعملية الهواء الساخن ينتقل بسرعة من المستويات الدنيا إلى الأعلى وعليه كلما كانت المساحة صغيرة والعلو كذلك كانت الحرارة عالية. قد يعتمد على عناصر البناء في التعرف على المبنى، مثل الأجر المستعمل في أعمدة الهيوكوست، حيث استعمل الأجر مربع الشكل *bessales* معدل طول كل ضلع 3/2 قدم (20 سم) وهو ما وجد متشابهاً في عديد الحمامات عامة كانت أو خاصة، وبخصوص تغطية الأرضية المحمولة فوق أعمدة الأجر *pilae*، عادة ما تتجزأ بالواح من الأجر *bipedales* بطول 2 قدم (60 سم×60 سم).

3. مصادر المياه وتصريفها من الحمامات:

يشكّل نظام المياه داخل الحمامات مصدراً هاماً لمعرفة طبيعتها وكيفية اشتغالها، لذا وجب تتبع مسارها منذ دخولها إليها، وبالنسبة للحمامات داخل التجمعات السكنية يستفيد الخواص من بعض الامتيازات في التزوّد بمياه القنوات العمومية، ولكن هذه الميزة محدودة وقد تكون مكلفة عند البعض منهم، كما قد لا تكفي الكمية الممنوحة لتزويد حماماتهم الخاصة دون انقطاع، الأمر الذي أدى إلى حفر آبار، خاصة المدن التي تختزن مياه جوفية سهلة الوصول إلى السطح، على شاكله منازل ثاموقادي وكويكول. وحسب توجيهات فيتروفيوس فإن المياه الموجهة للحمامات يجب أن تكون متوفرة بقدر يسمح بالاستحمام بأريحية، وعليه يشير إلى تزويد الأحواض الساخنة بالمياه انطلاقاً من تجهيز ثلاثة قدور توضع فوق الفرن، الأول مخصص للماء الساخن الموجه مباشرة إلى الأحواض والثاني مياهه دافئة أما الثالث مائه بارد، والغرض من هذا التتابع هو الاستمرارية في الحصول على الماء الساخن بتعويض قدر من آخر³³.

ومن الدلائل التي تشير إلى طبيعة المبنى الحموي، هو قربها من الخزانات، وهذه الميزة تسمح لها بالتزوّد بصفة مباشرة من مياهها، ومثل هذه الخاصية نجدها بشكل كبير في الحمامات العمومية والأمثلة عديدة مثل الحمامات الشّرّقية لمدينة كالما إذ يبعد عنها الخزان مسافة 10 متر وذكر "قرولوا" أنها كانت مرتبطة به بقناة زالت بقاياها³⁴، والحمامات الكبرى الجنوبية بكويكول تتصل مباشرة بخزانات تضمن لها استمرارية التزوّد بالمياه، وبثاموقادي يعتبر الخزان الموجود جنوب الحمامات الكبرى الجنوبية ممون حقيقي لهذه الأخيرة بالمياه ويتعدى ذلك إلى المنزلين المجاورين لها وهما منزل سارتيوس وهيرمافروديت؛ ونجدها كذلك في حمامات المنازل الريفية أو الفيلات، مثل تلك الموجودة بحمامات قصر فاطمة، إذ لا يبعد عنها الخزان أو الحوض سوى متران فقط.

وقد تبنى الخزانات تحت الأرض مثل تلك التي زوّدت بها بعض المنازل في ثاموقادي، شكلها مربع أو مستطيل، تستعمل لتخزين مياه الأمطار، فوهتها تشبه الآبار لذلك يصطلح على تسميتها بالبرّ الخزان،

Ibid. -³³

GRELLOIS, E., 1852, pp. 277-278. -³⁴

ويعتقد أن هذه الخزانات تستغل فقط للحمامات أو للتنظيف، وبهيبون يضمن الخزّانان الموجودان بالمنزل ذو الطوابق (البروكوراتور) استمرارية تموين حماماته بالمياه.

4. التوزيع الفضائي لمكونات الحمامات:

يختلف التوزيع الفضائي للحمامات بين العامة والخاصة، ففي العامة قد تنتشعب الأمور وتتعدد لكثرة الغرف والقاعات باختلاف وظيفتها، لكنها في نفس الوقت تعطينا قراءة حول طبيعة المبنى، في حين الخاصة ذات المساحة المحدودة نسبياً، قد لا ينتشعب البحث عن قاعات، عادة لا نجدها في حمامات المنازل على غرار قاعات المطالعة، والتمارين الرياضية، وقاعات الاجتماعات، والملحقات، التي نجدها في الحمامات ذات الطوابق، وبالتالي يقتصر تعاملنا مع القاعات الأساسية في الحمامات وعلاقتها بباقي أجزاء المبنى والبحث يبدأ من نقطتين رئيسيتين هما:

- الماء ومصدره وكيفية انتقاله داخل الحمامات وتصريفه منها.
- الموقد او مصادر الحرارة وانتشارها في القسم الساخن.

أما الأول فتقودنا اليه فنوافذ النقل والتصريف، وكذا آثار الترسبات الكلسية والتي عادة ما توهي بطبيعة المبنى، ولكن البحث هنا يحذر اذ تشترك الحمامات في هاته الخاصية مع أجزاء أخرى نجدها عادة في مباني الخواص، مثل النافورات ودور المياه *latrines*، صف الى ذلك أنّ كثيراً من المنازل وجدت بها أحواض تتوسطها أفنييتها *impluvium*، وفي غياب مخطط شامل لها قد يتدخل الشك في الحكم على الأجزاء اذا درست معزولة عن مجالها العام.

وفي بعض المنازل الخارجة عن التجمعات السكنية أحواض شرب الحيوانات، خاصة تلك المهيأة أو اللصيقة بالجدران في ظل غياب فهم شامل للمبنى أو في حالة غياب أجزاء أساسية له. رغم هذا تبقى حركية المياه مؤشر هام لمعرفة الأحواض خاصة الحمامات التي تضم حوض سباحة أو استحمام بارد مثل حمامات بومبيانوس.

ثم إنّ هذا العنصر الحيوي لا يستقر عند القسم البارد للحمامات ولا يتوقف مساره عند هذا الجزء، فالقسم الساخن هو الآخر يحتاج كمية معتبرة من المياه والتي تتولى الأفران المزودة بقدر وأواني تسخينه بنقله الى الاحواض الساخنة على اختلاف طبيعته المبنية أو المحمولة فوق أرجل *labrum*.

وفي احدى ورشات الصباغة بثاموقادي وجدت ثلاثة احواض مبنية متجاورة مستطيلة الشكل، وثلاث أخرى مصنوعة من الفخار دائرية³⁵ وقنوات تصريف مياه هذه الأحواض الى قناة الصرف الرئيسية تشبه تلك الموجودة في الحمامات، ولكن الاختلاف في مواضعها.

مثال آخر في مدينة كويكول يخلق مجالا للشك حول طبيعة المبنى حيث عثر في منزل الاحواض الصغيرة على أقسام تشكّل في مجملها ما نجده في الحمامات (قسم بارد وآخر ساخن، موقد، أرضية

³⁵. CHRISTOFLE, M., 1930 , pp. 31-32.

محمولة فوق أعمدة، تسلسل وترابط بين الغرف والأحواض) ولكن هل هو حماما تابع للمنزل أم له وظيفة أخرى؟

من جهتها ذكرت "إيفون آلي" أنّ هذا الجزء من المنزل ما هو الا ورشة لصباغة الأقمشة، حيث الأحواض الساخنة تغمس فيها لنتشيت الأصبغة ثم تجفف في القاعة الدافئة³⁶، والفصل في كون وظيفتها غير تلك الحموية هو مساحتها الضيقة التي لا تسمح للأفراد القيام بالاستحمام بكل أريحية.

ولنا مثال آخر في منزل الحمار حيث تشكّل الأحواض الثلاث في الجدار الغربي لقاعة الاستقبال، والمعروفة بقاعة استحمام فينوس³⁷ ما يشبه الأحواض التي نجدها في القاعات الساخنة والباردة، لكن طريقة تموضعها جنبا الى جانب توجي أنها نافورات وليست احواض استحمام، والتي عادة ما نجدها بشكل متقابل او حوض واحد كبير يسمح بالاستعمال الجماعي في نفس الوقت.

من جهة أخرى قد نجد تشابها بين أحواض السّباحة وخزانات المياه، وأوجه الشبه يكون في المستويات السفلى لها، لذا وجب البحث عن ما يحدّد طبيعته، فمن خلال المعاينة لعدد أحواض السباحة، نجد انها تحتوي على درجات تشكّل سلّم النزول الى الحوض حتى وان كان علوها لا يتعدى 1م، والغرض من إنشائها قد يكون لمساعدة المستحمين على النزول الى المسبح، كما يمكن أن يستعمل للجلوس وترك الأرجل تتدلى في المياه.

وبخصوص القاعات التي نجدها في الحمامات تختلف بحسب المساحة، اذ قد تكفي قاعتين للاستحمام واحدة ساخنة والأخرى باردة، في الحمامات الضيقة، مثل بعض حمامات الخواص كما يمكن أن تتعدى الى أكثر من ذلك، وبأحواض متعدّدة يختلف شكلها من رباعية الأضلع الى النصف دائرية وحتى الدائرية، كما يمكن ان تحتوي القاعة الواحدة على أكثر من حوض.

وقد نجد في بعض الحمامات أحواض ساخنة لكن مياهها غير مسخنة بنظام الهيبوكوست، وهذا ما نجده في الحمامات العلاجية، حيث مياهها ساخنة طبيعيا تفوق 60 درجة مئوية، مثل الحمامات الفلافية *aquae flavianae* والتي تصل درجة حرارة مياهها 70 درجة، يتم جلبها من منبع يبعد عنها مسافة 300م، في حين مياهها الباردة يتم جلبها من مصدر آخر³⁸، وآكواي تيبيليتاني *aquae thibiltanae* التي تفوق درجة حرارة مياهها 90 درجة، جلبت من المنابع الساخنة لوادي شداخة.

وبالنسبة للحمامات التي تحتوي قاعدة دافئة، يتم تسخينها بطريقة مباشرة من الأفران أو غير مباشرة من أرضية القاعة الساخنة أو قاعة التّعريق، وتعمل على خلق مجال تناوبي بين القسم الساخن والبارد، سواء كان موقعها وفق مسار مستمر أو متعرج فهي غالبا ما تكون مفتوحة على الاثنين معا ويسمىها بلين وغاليان بالقاعة الوسطى للحمامات³⁹ *cella media*، وبالرجوع الى مساحة الحمامات الخاصة يمكن

³⁶ ALLAIS, Y., 1971, p. 105.

³⁷ BLANCHARD-LEMEE, M., 1975, pp. 28-29.

³⁸ BIREBENT, J., 1964, pp. 238-239.

³⁹ QUATREMERE DE QUINCY, 1832, p. 140.

الاستغناء عنها مثل حمامات منزل يانوياريوس بثاموقادي، والعكس من ذلك فهي أساسية في الحمامات العمومية واسعة المساحة، بل أكثر من ذلك قد يحتوي بعضها أكثر من قاعة واحدة دافئة، مثل الحمامات الكبرى الشمالية بثاموقادي والتي احتوت ثلاث قاعات دافئة، واحدة مركزية متصلة مباشرة بالساخنة والباردة وفق مسار مباشر ويتفق عديد الباحثين على تسميتها بقاعة الدخول، وعلى الجانبين قاعتين دافئتين يمكن تسميتهما بقاعتي الخروج.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الحمامات بنيت لخلق مجال يبعث على الارتياح من خلال توفير كل ما يحتاجه المستحمين وفي إشارة من "سيناك" كتبها في القرن الأول ميلادي أنّ الناس يعتبرون الحمامات مناسبة ولكنها ليست كذلك ما لم تستقبل الشمس طوال النهار من خلال النوافذ الواسعة، إذ من غير الممكن الحصول على ملابسهم في الظلمة الحالكة⁴⁰، وهذه إشارة منه إلى إلزامية توفر الإنارة داخل قاعات الاستحمام، ويكون هذا بتوزيع عناصر البناء بشكل يوافق بين نوافذ الإنارة والمحافظة على درجة حرارة القاعات الساخنة.

5. الأدوات المستعملة في الحمامات (الصورة 03):



الصورة 03: الأدوات المستعملة في الاستحمام. عن:

[https://www.photo.rmnm.fr/archive/89-003807-consulter le 16/01/2021 à 2C6NU0HMH9Q6.html](https://www.photo.rmnm.fr/archive/89-003807-consulter%20le%2016/01/2021%20%C6NU0HMH9Q6.html)
10.59

يعتبر محك الاستحمام strigile (الشكل 01)

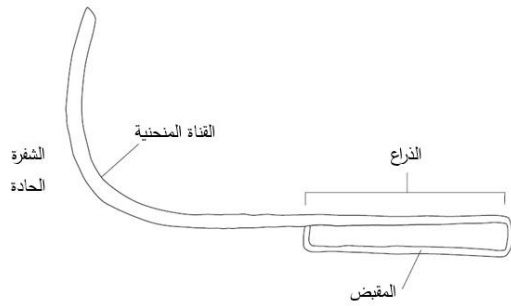
من الأدوات التي استعملت في الحمامات لإزالة شوائب الجسم أو آثار التعرق أو الزيوت بعد المكوث في قاعة التعريق، بالإضافة إلى الاسفنجة التي استعملت لدهن الجسم وهي ذات طبيعة عضوية⁴¹ سهلة التلف إذ لا نجد منها في المتاحف سوى الآثار القليلة جدا، ويبقى محك الاستحمام معيار حقيقي للتعرف على وظيفة المبنى انطلاقا من آثاره، لأن استعماله مرتبط فقط بالاستحمام ويمكن التعرف عليه بسهولة من شكله إذ يتكون من الذراع capulus والمقبض

clausula والقناة المنحنية tubulatio وعلى جانبيها شفرة حادة ligula تسمح بحك الجسم لازالة ما علق به، وهو مصنوع من الحديد أو البرونز أو العظم وحتى العاج⁴² (الشكل 02).

⁴⁰ RING, J-W., 1996, p. 718.

⁴¹ COUËLLE, C., 2014, p. 266.

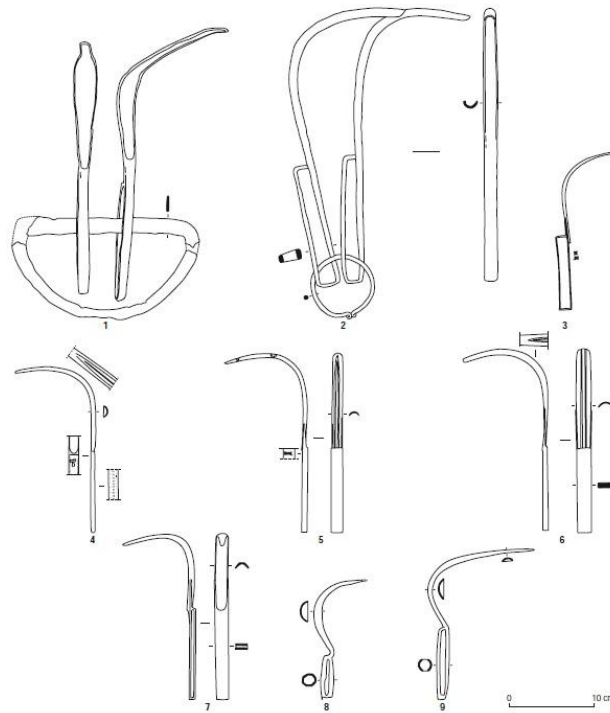
⁴² MALLET, F. ; PILON, F., 2009, pp. 119-121.



كما استعملت أداة لسكب الماء على الجسم patère هي الأخرى مصنوعة من المعدن لا تمتاز بعمق كبير، بالإضافة الى بعض الأدوات التي توضع فيها الزيوت او الدهون لترطيب الجسم aryballe ولكنها غير مرتبطة بالضرورة بالحمامات، فدرجة حكيמתها أقل من تلك التي ذكرنا.

الشكل 01: رسم توضيحي لمحك الاستحمام strigile.

عن: MALLEY, F. ; PILON, F., 2009, p. 115.

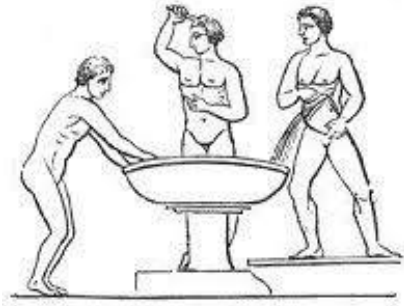


الشكل 02: مختلف أنواع محكات الاستحمام. عن:

MALLEY, F. ; PILON, F., 2009, p. 122.

وبالنسبة للحمامات الخاصة التي لا تحتوي على أحواض مبنية ساخنة وجدت أحواض الاغتسال لوضع الماء الساخن مصنوعة من المعدن أو الرخام ⁴³ labrum، تستعمل لغسل الأطراف، ويكلف الخادم بسكب الماء من حين لآخر.

⁴³ - BOUET, A., 2015, p. 292.



الشكل 03: رسم توضيحي لحوض الاغتسال

"لابروم". عن: ROMBY, J., 1949, p. 12.

بالنسبة لتسخين المياه استعملت قدور معدنية تختلف سعتها بحسب حجم الأحواض، توضع فوق الفرن، يتم تزويدها من حين لآخر بالمياه.

بالإضافة إلى كل ما ذكر، تشير المواضيع التي تقدمها الفسيفساء التي وجدت بالحمامات إلى ارتباطها بعنصر الماء مثل صور الآلهة على غرار نيبتون وامفيتريت ووالحوريات والوحوش والمخلوقات البحرية والدلافين. الخ⁴⁴، لكنها ليست بالضرورة مؤشر قوي، إذ قد نجدها في أجزاء أخرى من المنازل على غرار قاعات الأكل أو قاعات الاستقبال أو الأروقة، فصور الحوريات البحرية néreides والتي ارتبط وجودها بالحمامات إذ وجدت في حمامات بومبيانوس ستة حوريات ممتطية حيوانات مختلفة مصورة فوق تبليط فسيفسائي، وبإحدى الحمامات بروسيكاد وجدت مع الوحوش البحرية، ووجدت في القاعة الباردة لحمامات برج القصر (سيلا) رفقة سكيلا scylla وبالحمامات الكبرى لحي الخيالة بتيفاست تشكّل الحوريات السبع ممتطية الوحوش البحرية الموضوع الرئيسي للتبليط⁴⁵.

وبالمقابل وجدت في القاعة الكبرى لمنزل الحمار ممتطية المخلوق الأسطوري griffon وأخرى فوق حصان بحري، وفي هيبون وجدت في المنزل ذو الطوابق (البروكوراتور) بقاعة غير تلك المخصصة للاستحمام، حيث عثر على فسيفساء تحمل صوراً لأربع حوريات ممتطية وحوش بحرية⁴⁶، في حين قاعات الحمامات بلطت أرضيتها بفسيفساء ذات مشاهد نباتية.

دون شك المشاهد الفسيفسائية خاصة تلك المشكلة في المنازل حتى وإن كانت دلالاتها الترابطية ليست مقنعة بشكل تام، إلا أنها توجي إلى طبيعة ووظيفة الغرف، فالمشاهد المائية التي تضم الحوريات والمخلوقات البحرية والأسماك، وآلهة المياه والبحار ارتبطت بالحمامات والنافورات (ليس على سبيل الحصر، لكن الأمثلة كثيرة عنها)، ومشاهد الطبيعة الصامتة وتلك التي تصور المواضيع الديونيزية المرتبط بالخمير وجدت بشكل كبير في قاعات الأكل triclinium، والمشاهد التي تصور استحمام فينوس أو إيروس أو بيسيبي، أو ذات مشاهد شهوانية ارتبطت بقاعات النوم cubiculum⁴⁷.

⁴⁴ FOULCHE, A.L., 2011, p. 155.

⁴⁵ DONDIN PAYRE, M., 2010, p. 717.

⁴⁶ MAREC, E., 1969, pp. 164-166.

⁴⁷ PAPPALARDO, U. ; CIARDIELLO, R., 2010, p. 77.

خاتمة:

قد نخلص الى القول أنّ الحمامات تختلف في طريقة بنائها وهندستها عن باقي المنشآت الخاصة والعمومية على حد سواء، مما يصعب أحيانا الحكم عليها في بداية الأبحاث، وعليه فالحذر مطلوب حتى تتوفّر العناصر التي من خلالها يبني الفهم العام لها، هذه العناصر مجتمعة لتؤدي غرض واحد وهو تحديد طبيعة المباني الحموية، فلا الماء وحده قادر على إعطاء تصوّر حول طبيعة المبنى ولا نظام التسخين، ولا الأجر المستعمل في البناء ولا الهندسة والانشاء، بل يجتمع الكل في نسق متكامل يعطينا حكما عاملا يحدّد نوع البناء ووظيفته.

قائمة الببليوغرافيا:

1. دحمان رياض، 2013م-2014م، الحمامات الشرقية لمدينة كالما في مجالها العمراني الروماني القديم، رسالة ماجستير في علم الآثار غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر.
2. AÉ, 1907, 240. ; AÉ, 1907, 242. ; AE, 1971, 508.
3. ALLAIS, Y., 1971, « Le quartier occidental de Djemila (Cuicul) », in AntAf., 5, pp. 95-120.
4. BALLU, A., 1910, « Rapport sur les fouilles archéologiques exécutées en 1909 par le Service des monuments historiques de l'Algérie », in BCTH, 29, pp. 100-126.
5. BALLU, A., 1911, Les ruines de Timgad, antique Thamugadi « sept années de découvertes », Paris.
6. BALLU, A., Rapport 1923, in BCTH 1924, p. 23.
7. BIREBENT, J., 1964, AQUAE ROMANAE, Recherches d'hydraulique romaine dans l'Est algérien, Alger.
8. BLANCHARD LEMEE, M., 1975, Maisons à mosaïques du quartier central de Djemila (Cuicul), C. N. R. S (centre nationale de la recherche scientifique), Paris.
9. BOUET, A., 2003, Thermes Privés et Publics en Gaule Narbonnaise, in EFR, n° 320, Rome, planche 16-b.
10. BOUET, A., 2015, « Pratiques balnéaires et acculturation : quelques éléments de réflexion », In Contacts et acculturations en Méditerranée occidentale, Publications du Centre Camille Jullian, Aix-en-Provence, pp. 285-298.
11. CAGNAT, R. ; BALLU, A., 1916, in BCTH, p. CLXIX.
12. CAGNAT, R., in BAC 1893, p. 162.
13. CAGNAT, R., in BAC, 1916, pp. 167-168.
14. CAGNAT, R., in BAC, 1925, p. 172.
15. CHRISTOFLE, M., Rapport sur les travaux de fouilles et consolidations effectués en 1930, 1931, 1932, par le service des monuments historiques de l'Algérie, II, Alger, 1935.
16. Corpus Inscriptionum Latinarum (CIL), VIII.

17. COUËLLE, C., 2014, « Balaneutikè : le bain et les soins du corps dans l'Antiquité gréco-romaine », in Journées de l'Antiquité et des Temps anciens 2014-2015, Faculté de Lettres et Sciences humaines ; Université de La Réunion, Saint Denis, La Réunion, pp. 259-284.
18. DONDIN PAYRE, M., 2010, « Les thermes romains de Theveste–Tébessa et l'album de ALLOTTE DE LA FUYE François Maurice, un document sur les vestiges méconnus », in C.R.A.I, 154-2, pp. 709-738.
19. FOULCHE, A.L., 2011, Le paysage balnéaire de Rome dans l'Antiquité : aspects topographiques, juridiques et sociaux. Thèse doctorat en Archéologie et Préhistoire, Université de Grenoble.
20. GERMAIN, S., 1969, Les mosaïques de Timgad. Étude descriptive et analytique, Éditions du Centre National de la Recherche Scientifique, Paris.
21. GRELLOIS, E., 1852, « Etudes archéologique sur Ghelma », in Mémoire de l'académie nationale de Metz, 33, 1, pp. 259-312, pl. I.
22. GSELL, S. ; JOLY, C-A, 1914-1922, Khamissa, Mdaourouch, Announa, édition E. de Boccard, Paris.
23. GSELL, S., 1901, « Notes d'archéologie algérienne », in BCTH, pp. 308-323.
24. GSELL, S., 1911, Atlas archéologique de l'Algérie, Paris.
25. GSELL, S., 1922, Les Inscriptions Latines de l'Algérie=ILAlg., Librairie ancienne honoré champion, Paris.
26. GSELL, S., 1901, Les monuments antiques de l'Algérie, 1, ancienne librairie Thorin et fils Albert Fontemoing éditeur, Paris.
27. LE BOHEC, Y., 1989, La Troisième Légion Auguste, CNRS, Paris.
28. MALLET, F. ; PILON, F., 2009, « Le strigile en Gaule, objet utilitaire et vecteur de romanité : l'exemple du strigile de la villa des Champs-de-Choisy à Charny (Seine-et-Marne) », in Gallia-Archéologie de la France antique, CNRS Éditions, 66, 2, pp. 113-151.
29. MAREC, E., 1969, « Une maison à étages à Hippone. La villa dite « du Procurateur » », in AntAf., 3, pp. 157-172.
30. PAPPALARDO, U. ; CIARDIELLO, R., 2010, Mosaïques gréco-romaines, Citadelles et Mazenod, Paris.
31. QUATREMERE DE QUINCY, 1832, dictionnaire historique d'architecture, 1, librairie d'adrien de cler et c^{ei}, Paris.
32. RING, J-W., 1996, « Baths, and Solar Energy in the Roman Empire », in American Journal of Archaeology, 100, 4, pp. 717-724.
33. ROBERT, E., 1522, Dictionarium Latinogallicum, éditions eBooks France.
34. ROMBY, J., 1949, Histoire des bains- les bains dans l'antiquité, bibliothèque de travail n° 92, imprimerie à l'école cannes (A.M).
35. STERN, H., 1971, « Mosaïque trouvée à Jonvelle (haute Saône) », in Bulletin de la société nationale des antiquaires de France, 1969, p. 239.
36. THEBERT, Y., 2003, Thermes romains d'Afrique du Nord et leur contexte méditerranéen, Écoles françaises d'Athènes et de Rome, Rome.
37. VARS, C., 1901, « Inscriptions découvertes à Timgad pendant l'année 1901 », in RSAC, 3, pp. 218-274.
38. VELDMEIJER, A. J., 2011, Tutankhamun's Footwear: Studies of Ancient Egyptian Footwear.
39. VITRUVÉ, De l'architecture, traduit par Maufras (C.L), C.L.F, Panckoucke, 1847.
40. WAROT, S., 1960, « Timgad: Bene lava », in Libyca a/é, VIII, 2, pp. 167-172.